صداقة غالية!
12-7-2003

ويمكن القول أن الذي جعل الهجوم على العراق ممكنا، كان حقيقة هامة واحدة طبعت الحياة السياسية الأمريكية: التحالف الأمريكي الإسرائيلي، كأوثق علاقة بين "دولتين" في العالم اليوم. الحرب على العراق كانت في الحقيقة مؤشرا على بلوغ هذا التحالف مرحلة الذروة.

يدور معظم الحديث في أوروبا هذه الأيام في مكاتب الصحف، في حفلات العشاء، في وزارات الخارجية حول خداع أمريكا وبريطانيا باقي الدول في الإعتقاد بأن هناك أسبابا وجيهة لشن الحرب على العراق. وساد انطباع على نحو واسع الآن بأن الحرب كانت احتيالا، لكن من وراء هذا الإحتيال، ومن المستهدف؟ هل كانت بوش وبلير يُطعمان بمعلومات استخباراية مصطنعة، أو أنهما كانا على معرفة مسبّقة بأساليب وفنون التهويل والمبالغة للتهديد العراقي لتبرير الهجوم؟.

بدأت مجموعات الإستخبارات المختلفة ولجان الشؤون الخارجية من البرلمان البريطاني والكونغرس الأمريكي في إجراء التحقيقات حول كيف اتُخذ القرار بدخول الحرب، متى، لماذا وعلى أية أدلة استند؟. لكن هذه العملية ستتطلب جهدا خارقا لإختراق الطبقة المظلمة للبيروقراطية الحكومية المتنافسة، مدافعين مؤيدين لإسرائيل، محرري صحف ومجلات، مجلس خبراء، رجال دين ومذهبيين ...وكل هؤلاء في واشنطن على الأقل، لديهم ما يقولون في تشكيل السياسة الخارجية.

كيف بدأت الحرب؟ جزء مهم من القصة الكاملة مرتبط بالعلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة وإسرائيل، ويرجع تشكَلها بوضوح إلى دبلوماسية الستينيات، التي دشنت التحالف غير العادي بين البلدين. وفي الواقع، إنها قصة تكشف عن كيفية تمكن إسرائيل وأصدقائها الأمريكان من ممارسة نفوذ عميق على السياسة الأمريكية تجاه العالم العربي والإسلامي.

المحافظون الجدد - مجموعة قوية في قلب إدارة بوش- أرادت حربا ضد العراق وضغطت بتصميم وحزم، يتجاوز ويخيف كل أولئك الذين أبدوا الشكوك، ونصحوا بالحذر، ونبهوا إلى الحاجة للحلفاء وشرعية الأمم المتّحدة، أو أوصوا بالتزام أدوات الحرب الباردة المجربة للإحتواء والردع. حرب كان لزاما عليها أن تكون، كما جاهر بهذا المحافظون الجدد، للتعامل مع التهديد الوشيك الذي صنعوه من أسلحة صدام المخيفة!، وجندوا له الخطيب "بلير" لتسويقه وبيان خطورته.

لكن من أين جاء بالمعلومات لنسج بيانه "الرائع"؟ كيف وصلت هذه المعلومات الإستخبارية "الموثوقة" قبل الحرب إلى بوش وبلير؟ إن الإصبع على نحو متزايد يشار إلى خلية الإستخبارات الخاصة لوزارة الدفاع الأمريكية ، المعروفة بلجنة الخطط الخاصّة، برئاسة أبرام شولسكاي. وتشكل المكتب بعد 9/11 من طرف اثنين من المحافظين الجدد البارزين والأكثر تطرفا، بول ولفويتز، نائب وزير الدفاع، ودوغلاس فيث، وكيل وزارة الدفاع للسياسة، للبحث والتقصي عن برامج أسلحة الدمار الشامل لصدام وصلاته المزعومة مع القاعدة، لأنهم ادعوا أنهم لا يثقون في المعلومات التي تأتي بها وكالات الإستخبارات الأمريكية. واعتمدت هذه الخلية الإستخبارية بشدّة على شبكة أحمد شلبي للمخبرين المنفيين.

ومن خلال النظر في عملية اتخاذ القرارات في واشنطن، يمكن تمييز اتجاهين أو تيارين متقاربين. الأول كان بشكل واضح وليد هجمات 11 سبتمبر 2001، التي صدمت أمريكا وأرعبتها وأغضبتها، وحطمت إحساسها بالحصانة والمناعة، لكنها دفعتها لإعلان "الحرب الشاملة" ضد أعدائها بطريقة عمل "هوليود" الإستعراضي، واستندت في هذا إلى تجربتها الدموية السابقة في الحروب والأنشطة الإرهابية. وقد تولدت استراتيجية الأمن القومي العدوانية الصادرة في أيلول 2002 من هذه المخاوف والسوابق. والسبيل إلى تحقيق هذه الإستراتيجية هي الحرب الوقائية أو الإستباقية. وفي إطار هذا "المذهب" العسكري الجديد لبوش، أعطت أمريكا نفسها الحق في تسليط قوتها الهائلة على من تشاء وفي أي شاءت. وفي الحقيقة، كان هذا جزءا من مخطط لبسط الهيمنة العالمية، يحركه التهديد ضد أمريكا، ولكن أيضا بنسخة حديثة من الطموح الإمبراطوري.

الثاني، اتجاه متداخل – باعتباره يتضمن الوجوه نفسها- كان يركز أكثر جهوده ووقته على إسرائيل في نزاعها مع الفلسطينيين وجيرانهم، ويمثله المحافظون الجدد من اليهود اليمينيين (وأكثر المحافظين الجدد من اليهود اليمينيين) الذين يعتقدون بأتلازم المصالح الأمريكية والإسرائيلية. وهم أصدقاء حزب الليكود بقيادة أريل شارون، يميلون إلى احتقار العرب والمسلمين. وبالنسبة إليهم، فإن قضية "تحرير" العراق ما كانت موجهة لتحسين وضع العراقيين أو تخليصهم من "طاغية"، كما هو الحال مع قضية "تحرير" إيران وإنهاء برنامجها النووي، وإنما كانوا يهدفون إلى ترتيب بيئة إسرائيل العسكرية والإستراتيجية.

ولقلقهم البالغ بشأن تأمين سيادة إسرائيل الإقليمية المستمرة، جادل المحافظون الجدد بأن الهدف من السياسة الأمريكية في "الشرق الأوسط" يجب أن تكون "إعادة الهيكلة" السياسية والأيديولوجية الشاملة للمنطقة، كما أن "الديمقراطية" المصدرة تخدم مصالح الدفاع عن الولايات المتحدة وإسرائيل. والشرق الأوسط "المنشود" يمكن أن يشكل على أساس تأييده للأمريكان ولإسرائيل، وكل هذا يبدو قد بلغ طموح مخطط الهيمنة الإقليمية الإسرائيلية، يقوده أقصى اليمين الإسرائيلي وأصدقاءه من الأمريكان.

كان هناك الكثير من الأسباب وراء رغبة إسرائيل وأصدقائها في واشنطن في "إعادة هيكلة" العراق. منها، أن عراق صدام كان البلد العربي الوحيد التي قد يشكل تحديا استراتيجيا في المدى البعيد بالنسبة لإسرائيل. حكومة مصر كانت قد حُيدت بالإعانات المالية الأمريكية وبمعاهدة سلامها مع إسرائيل، بينما شُغلت سوريا بقضايا الأمن الداخلية، واستُنزفت بإقتصاد متعثر ونظام سياسي متحجر. وبإسقاط الزعيم العراقي، كان المحافظون الجدد يتطلعون إلى تغيير المشهد السياسي لكامل المنطقة، من خلال إخافة طهران ودمشق، وحتى الرياض والقاهرة، وبهذا يدفعون بميزان القوى إلى الميل بشكل حاسم لمصلحة إسرائيل، ويسمح لهم بفرض الشروط القاسية على الفلسطينيين (خريطة الطريق). وتطبيع علاقات "سلام" عراقية مع إسرائيل.
هذه الأسباب، بالإضافة إلى السيطرة على مصادر نفط العراق، كانت الأهداف الحقيقية للحرب ضد العراق. ويمكن القول أن الذي جعل الهجوم على العراق ممكنا، كان حقيقة هامة واحدة طبعت الحياة السياسية الأمريكية: التحالف الأمريكي الإسرائيلي، كأوثق علاقة بين "دولتين" في العالم اليوم. الحرب على العراق كانت في الحقيقة مؤشرا على بلوغ هذا التحالف مرحلة الذروة.

ويرجع تأسيس أصول التحالف الأمريكي الإسرائيلي حسب بعض المؤرخين الأمريكان إلى إدارة كندي. وحسب هؤلاء، فإن تاريخ 19 أغسطس 1962، كان بداية العلاقة العسكرية بين واشنطن وتل أبيب. في ذلك اليوم، التقى في تل أبيب، مايك فيلدمان، المستشار في البيت الأبيض ورجل إتصال كندي النشط مع إسرائيل واليهود الأمريكان، مع ديفيد بن غوريون وغولدا مير واجتمع معهما سرّا وأخبرهم "بأن الرئيس قرر أن صاروخ "الصقر" يجب أن يوضع في متناول إسرائيل". وبهذا وضع قرار كندي حدا لمقاطعة آيزنهاور لبيع أنظمة الأسلحة الرئيسية إلى إسرائيل.